المدرسة والحلقة والنظرية

يواجه الباحث في حقل الدراسات اللسانية والطالب الجامعي– على وجه الخصوص– عبارات متنوعة، يجدها مبثوثة في ثنايا الكتب اللغوية، من مثل: المدارس اللسانية، النظريات النحوية، الحلقات اللسانية، المدرسة البنيوية، المدرسة التوزيعية، المدرسة الغلوسماتيكية، المدرسة التوليدية التحويلية، حلقة براغ، النظرية السياقية ... وغيرها من العبارات التي تندرج ضمن هذا الحقل، فهل هناك فرق بين المدرسة والنظرية والحلقة، أم أن المسمى متعدد والمفهوم واحد؟

ولتحديد الفرق بين المصطلحات السابقة، يجب أن نقف عند تعريف كل مصطلح على حدة.

أولا– المدرسة:

إنّ أول من استعمل مصطلح " مدرسة " من المحدثين، هو المستشرق **بروكلمان**، وذلك أثناء حديثه عن النحو العربي، حيث قال: «وقد قسم علماء العربية مذاهب النحاة إلى ثلاث مدارس: البصريون والكوفيون، ومن مزجوا المذهبين من علماء بغداد»[1]، ودعّمت هذا الرأي **خديجة الحديثي** إذ علقت بقولها: «ويبدو أنه عنى بمدرسة مجموعة النحاة الذين كانوا ينتسبون إلى بيئة نحوية واحدة»[2].

فمثل هذا الانقسام شائع من زمنٍ، ومثل المدارس النحوية في انقسامها نعثر على مدارس لسانية كثيرة، وكانوا يعنون بها: «مجموعة اللغويين الذين كوّنوا درسا لغويا في بيئة معينة، سواءٌ أضمهم منهج موحد، خاص بهم، له أسسه وأصوله وقواعده المعروفة المستقلة، أم كان مبنيا على منهج من سبقهم، إلا أنهم استقروا في بيئة أخرى، وتأثروا بظروف البيئة الجديدة بعد التأثر»[3].

أي إنّ مفهوم المدرسة يخضع لمعايير عديدة، منها: وجود طائفة من اللغويين، المنهج الذي يتبعه هؤلاء في دراسة القضايا اللسانية، الأصول التي تنبني عليها المسائل اللغوية، البيئة والزمن.

---

[1] بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 124/2.

[2] خديجة الحديثي، المدارس النحوية، ص13.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وبناء على تلك المعايير، شاعت تقسيمات عدة لمجموعة من اللسانيين، فظهرت مدارس كثيرة، منها: المدرسة البنيوية، والمدرسة التوزيعية، والمدرسة الغلوسماتيكية، والمدرسة التوليدية التحويلية ...وغيرها.

وتضم المدرسة حلقات، وهي بمثابة فروع من المدرسة، يتبناها مجموعة من العلماء. أما النظرية فيؤسسها شخص معين، ويتبعه آخرون، وهي مفهوم أو مبدأ أو تصور.

ثانيا-النظرية:

تتنازع مصطلح النظرية حقول معرفية كثيرة ومتنوعة، علمية وفكرية وفلسفية وغيرها. وهي مشتقة من الفعل "نظر" في الشيء، أي: حاول فهمه وتقصي معناه وحقيقته بالفهم والتجريب والاختبار.

أمّا النظرية اللسانية فهي كل تفكير يتناول بالتحليل المُشكلات اللغوية، قصدَ تقديم اقتراحات للتطوير والتحسين والتغيير والتجديد، وهي مدعمة بخلفية من الأفكار والمفاهيم المنظمة والمنسجمة بشكل منهجي.

أما النظرية عند الفلاسفة فهي عبارة عن «تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسقة تهدف الى ربط النتائج بالمبادئ»[1]، أو هي «عملية تصورات مؤلفة تأليفا عقليا يهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات، وهي بمثابة فرض علمي يمثل الحالة الراهنة للعلم، ويشير إلى النتيجة التي تنتهي عندها جهود العلماء أجمعين في حقبة معينة من الزمن، وبربط عدة قوانين بعضها ببعض، ويرد الى مبدأ واحد يمكن أن يستنبط منه حتما أحكاما وقواعد»[2].

وإذا ربطنا النظرية بتصوراتنا لظاهرة معينة فيمكن تعريفها بأنها: الفرضية المحققة بعدما جرى إخضاعها لأحكام العقل. ولكي تظل نظرية ما صالحة فعليها أن تتطور دائما مع تقدم العلوم، وأن تبقى خاضعة باستمرار للتحقق ولنقد الوقائع الجديدة التي تظهر، فإذا اعتبرت نظرية ما على أنها كاملة، وتوقفوا عن التحقق فيها أصبحت **مذهبا**[3].

والنظرية، في سياق دراسة الظواهر اللغوية والعلمية، هي جملة من «الفروض الذهنية أو العقلية التي يقدمها العلماء في استنباطهم للأنظمة التي يدرسونها»[4].

---

[1] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، 477/2.

[2] محمد فتحي عبد الله، معجم مصطلحات المنطق وفلسفة العلوم، ص 327.

[3] ينظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، 1455/3.

[4] محمد عبد العزيز الدايم، النظرية اللغوية في التراث العربي، ص17.

موضوع النظرية:

لا بد من تحديد موضوع النظرية بشكل منهجي، حتى يتمكن الباحث من حصر ما ينتمي إلى نظرية ما، ويُخرج ما ليس منها، أو ما يتجاوز حدودها. ويتم ذلك بحصر موضوع كل علم، واستنباط مكونات الموضوع. لذلك لا بد من ضبط قواعد تحديد الموضوعات التي تندرج تحت كل نظرية، ويعاد النظر في كثير منها، حتى لا نُدخل في النظرية ما ليس منها، أو ما يتجاوزها لغيرها.

مجال النظرية:

القصد من المجال هنا اللغة التي هي مادة الوصف والتقعيد. ينبغي تحديدها، وتحديد المدونة التي تمثلها، لاستخلاص النتائج منها.

خصائص النظرية اللغوية:

«العموم والتجريد والاكتمال والبساطة والاقتصاد والاتساق العام والكفاية في وصف اللغات وصلاحيتها للتطبيق على أكبر قطاع من اللغات»[1] .

شروط النظرية اللغوية:

تُبنى النظرية اللغوية بناءً منطقيا من سلسلة من المفاهيم والأفكار المؤلفة حول اللغة، لذلك فإنّ من شروط قيامها: البناء المنطقي، والإقناع، والمفاهيم، وهي جميعا مُتضَمنة في المعايير الآتية:

-**معيار الشمول:** كل نظرية تفسر أكبر عدد ممكن من الظواهر المدروسة فهي شاملة، أو أقرب إلى الشمول، أما الاكتمال والكمال فيقابله في اللغة الفرنسية complétude، وترجمة بالشمولية أحسن من الكمال، لأن الكمال لا نقص فيه بسبب نزوعه إلى المطلق.

-**معيار الانسجام:** هو خلو النظرية من التناقض بين المبادئ في ذاتها، أو التناقض في طرق الانتقال من المبادئ إلى النتائج.

[1] محمد عبد العزيز الدايم، النظرية اللغوية في التراث العربي، ص22.

مثلا: يتخذ سوسير في محاضراته مبدأ دراسة اللغة في ذاتها بوصفها نظاما قائما بذاته مستقلا بنظامه عن الواقع، ولكنه حين يبرهن عن مبدأ الاعتباطية يخرج من لغة إلى أخرى، كما يلجأ إلى الواقع ليعضد (يدعم) دعواه. وقد انتقد بنفنيست مبدأ الاعتباطية بعد أن لاحظ فيه تناقضا.

ويزداد يقين العلماء بالنظريات كلما أيدتها التجارب، وكلما فسرت أكبر عدد من الظواهر من ناحية أخرى، وبما أنّ المحدودية هي إحدى خصائص الإدراك البشري فإنّ النظرية تشترك مع القوانين العلمية في كونها نسبية وتقريبية.

-معيار الكفاية التفسيرية

<u>عناصر النظرية:</u>

هي باختصار:

التعريفات-الفرضيات-الوصف-التحليل-التركيب